الحركة الوطنية الاشتراكية الالمانية

٢ - مرحلة الكفاح وبداية الظفر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يشهد التاريخ الحديث ثورة ضئيلة فى نشأتها ، عظيمة شاملة فى نتائجها كالثورة الوطنية الاشتراكية الألمانية ؛ فان تلك الجماعة المغمورة التى قامت فى ميونيخ باسم حزب العمال الوطنى الاشتراكى بزعامة ادولف هتلر والتى لم تتجاوز السبعة ، كانت أول حجر فى صرح الحركة الوطنية الاشتراكية الالمانية التى اخذت تغمر المانيا لأعوام قلائل من ظهورها ، والتى توجه اليوم مصاير الشعب الالمانى .

قامت هذه الجماعة فى ميونيخ سنة ١٩١٩ على نحو ماينا وانتظم فيها الضابط الصغير والبناء النمسوى السابق ادولف هتلر ، ليتولى بعد قليل زعامتها وتنظيمها ، فماذا كانت ترجو وعلام كانت تعتمد ؟ من الصعب أن نعتقد أن هذه الزمرة من رجال لا ماضى لهم ولا عصبة ، وليست لهم أية كفايات خاصة ، كانت يوم انتظامها تؤمل أن تفوز فى ميدان الكفاح السياسى بتلك السرعة المدهشة ، لتفرض برنامجها بعد ذلك على الشعب الألمانى كله . ولكن الذى لاريب فيه أن ظروف المانيا عقب الحرب الكبرى ، وما سرى اليها من عوامل الانحلال واليأس والفوضى ، كانت تفسح مجالا للظهور والمغامرة ؛ وكانت أية دعوة إلى الخلاص والنهوض والامل تلقى فى هذه الغمار المظلمة قبولا . وقد كانت الحركة الوطنية المحافظة التى كانت ميونيخ مهدا لها ، تتخذ شعارها العمل على انقاذ المانيا من ويلات الهزيمة ، ومن براثن الفوضى الاشتراكية والشيوعية ؛ فكانت عصبة هتلر تحمل لواء هذه الدعوة ، وتعمل فى جو من العطف الذى يتمتع به ابان اليأس العام كل من القى كلمة الخلاص والامل .

وفى هذا الجو استطاع هتلر أن ينظم حزبه وأن يجمع له الانصار . وكانت المهمة شاقة ، ولكن هتلر استطاع بكثير من العزم والمثابرة والجلد أن يحول عصبته الصغيرة الى حزب سياسى هو : «حزب العمال الوطنى الاشتراكى الالمانى» . ووضعت مبادىء الحزب الاساسية فى فبراير سنة ١٩٢٠ فى ميثاق وطنى يتألف من خمس وعشرين مادة ترمى الى اغراض خمسة : «الاول» الاستيلاء على الحكم والسلطة . «الثانى» سحق الحركة المركسية (الاشتراكية والشيوعية) «الثالث» صبغ المانيا كلها بالصبغة الوطنية الاشتراكية . «الرابع» تحقيق وحدة الشعوب الجرمانية (المتكلمة بالالمانية) . «الخامس» تنقية الجنس الالمانى وتطهيره من كل شخص يجرى فى عروقه دم يهودى أو دم آخر غير آرى . ولهذه الغاية الأخيرة التى صيغت فى المادة الرابعة (١) من الميثاق ، اهمية خاصة ؛ لان فكرة الايثار الجنسى لم تبد من قبل فى برنامج أى حزب من الاحزاب السياسية بمثل هذه الصراحة ؛ ونرى انها غدت منذ استيلاء الحزب الوطنى الاشتراكى على السلطة من أخطر المشاكل الاجتماعية والسياسية التى تواجهها المانيا ، والتى مازالت تعانى من جرائها كثيرا من المتاعب والصعاب .

سار الحزب الوطنى الاشتراكى الجديد فى طريق التقدم بسرعة ، ولقى برنامجه كثيرا من العطف والتأييد ؛ والفى فى حوادث سنة ١٩٢٣ (مثل نكبة العملة واحتلال الروهر) وما بثته فى المانيا من البؤس واليأس مهادا خصبة لدعوته ، وبلغ اعضاؤه يومئذ نحو الفين . وأيده جماعة كبيرة من القادة والضباط القدماء وعلى رأسهم الجنرال لودندورف ؛ وأيده كثير من رجال المال والصناعة الذين خشوا عواقب تقدم الحركة الشيوعية ولم يدخروا وسعا فى مقاومتها ؛ وأخذ هتلر يجمع الانصار حول علم ذى الصليب المعقوف (سفاستكا) وانشأ لحزبه قوة شبه عسكرية لتحفظ النظام أثناء الاجتماعات وغيرها من المناسبات وهى التى غدت فيما بعد جناح الهجوم الشهير SturmAbteilnng ؛ وانشأ حرسا من خاصة أعوانه وانصاره لحمايته وحماية زعماء حزبه . هو المعروف بفرقة الحماية Schutz Staffel . وبذا اتخذ الحزب الوطنى الاشتراكى لونا عسكريا قويا ؛ والفى هتلر فى هذا الوقت نفسه (ربيع سنة ١٩٢٣) فى حوادث بافاريا فرصة للقيام بأول محاولة عنيفة . وكانت بافاريا تضطرم يومئذ بحركة رجعية قوية ترمى الى اسقاط حكومة برلين

---

(١) وهذا هو نصها : « لا يحق لغير أعضاء الامة ان يكونوا مواطنين فى الدولة . ولا يحق لغير أولئك الذين ينحدرون من دم المانى ، مهما كان مذهبهم ، أن يكونوا اعضاء فى الامة . واذن فليس لاى يهودى ان يكون عضوا فى الامة »

الجمهورية واعادة الملكية فى بافاريا ، على رأسها فون كار رئيس وزارة بافاريا السابق والجنرال فون لوسوف مبعوث « الريخ » لحكومة برلين ـ العسكرى والكولونل مايزر مدير البوليس . فتفاهم زعماء هذه الحركة مع الجبهة الوطنية الاشتراكية التى يتزعمها هتلر ولودندورف لان الحركتين ترميان الى غرض واحد ؛ واتفق الفريقان على ان ينظما الزحف على برلين واسقاط الحكومة ؛ ولكن فون كار تخلى عن الوطنيين الاشتراكيين فى آخر لحظة ، ونظم هتلر واصدقاؤه الحركة وحدهم ، وبدأ الثورة بأن أطلق رصاص مسدسه على سقف محل للبيرة فى ميونيخ فى اجتماع حافل ، واعلن ان الثورة الوطنية قد بدأت ضد « حكومة برلين اليهودية » . ولكن السلطات البافارية كانت على أهبة ؛ فقتل عدة من رجال النازى ، وجرح الكبتن جيرنج أخص اصدقاء هتلر وساعده الأيمن ولكنه حمل خلسة الى ايطاليا ؛ وقبض على هتلر ولودندورف . وصدر قرار بحل الحزب الوطنى الاشتراكى ومنع اجتماعاته ـ نوفمبر سنة ١٩٢٣ ـ . وبرىء لودندورف ولكن هتلر قضى عليه بالسجن فى قلعة لخسة أعوام ـ ابريل سنة ١٩٢٤ ـ . وزج الى قلعة لانجسبرج فبقى فيها ثمانية أشهر كتب أثناءها كتابه المعروف « جهادى » Mein Kampf ؛ وفيه يقص حياته ويشرح مبادىء الحركة الوطنية الاشتراكية وغايتها ويرد على خصومه اليهود . وهو مؤلف لا طراقة فيه ولا قوة ، ولا ينم عن مواهب فكرية أو أدبية ممتازة ، بيد أنه ينم عما تضطرم به نفس هتلر من عزم وجلد . ثم أفرج عنه . وكان حزبه قد تفرق ؛ ولكنه عاد الى جمعه وتنظيمه بنفس عزمه وهمته ، وظهر يومئذ فى الجماهير بمقدرته الخطابية وذلاقته وقوة تأثيره . وكان هذا التأثير وما زال اعظم خواصه ومواهبه . وكان يعمل عمله فى صفوف الشباب بنوع خاص ، اذ كان هذا الشباب الطامح يعانى من صنوف الشقاء واليأس والبطالة أشدها ، ويتطلع دائما بحماسة ولهفة الى طريق الخلاص المنشود .

وظهر تقدم الدعوة الوطنية الاشتراكية واضحا فى انتخابات مايو سنة ١٩٢٤ ، اذ نال حزب هتلر نحو مليونى صوت تخوله فى الريخستاج ٣٢ كرسيا . ثم فتر هذا التقدم خلال الاعوام التالية ، أولا لتحسن الاحوال الداخلية ولاسيما الحالة الاقتصادية وانتعاش الآمال نوعا ، وثانيا لان الحكومات المتوالية اخذت تشتد فى مقاومة الحركة لما رأته من تقدمها وخطورتها . بيد أن الحزب الوطنى الاشتراكى استمر فى كفاحه ، وعادت دعوته بعد وفاة شتريزمان وانهيار سياسة الوفاق واضطراب حكومة برلين من جراء ذلك ، تسرى فى الجموع بسرعة ؛ حتى بلغ أعضاؤه فى سنة ١٩٣١ ، أربعمائة ألف ؛ ونال فى انتخابات ديسمبر سنة ١٩٣٠ نحو ستة ملايين ونصف مليون صوت تخوله فى الريخستاج ١٠٧ كرسيا ؛ ووصل ذروة ظفره فى انتخابات يولية سنة ١٩٣٢ حيث نال نحو أربعة عشر مليون صوت تخوله ٢٣٠ كرسيا ، وهو ما يقرب من خمسى اعضاء الريخستاج ، وأضحى بذلك أقوى الاحزاب البرلمانية ، وقوى أمله فى انتزاع الحكم . ورشح هتلر نفسه فى ذلك الحين لانتخاب رآسة الجمهورية ضد المارشال هندنبورج فلم يفز المارشال امام منافسه القوى الا فى الدورة الثانية . وبذلت حكومة فون بابن القائمة وقتئذ جهودا عنيفة لوقف تيار الحركة الوطنية الاشتراكية ، وحلت الريخستاج واجرت انتخابات جديدة فى نوفمبر سنة ١٩٣٢ ، فنال الوطنيون الاشتراكيون فيها مع ذلك ١٩٦ كرسيا . وأضحى الرئيس هندنبورج وحكومة برلين أمام الامر الواقع ؛ وأضحى واضحا انه لا يمكن لاية قوة أن تقف فى وجه هذا التيار الجارف ؛ وان الوسائل المصطنعة لا تجدى فى مقاومته ، وأن السلطة صائرة اليه بلا ريب . وكان الرئيس هندنبورج قد دعا هتلر عقب انتخابات يوليه ليفاوضه فى امكان اشتراكه فى الحكم ، ولكن هتلر أصر على تولى السلطة كاملة غير منقوصة . وهذا ما أباه الرئيس هندنبورج مدى حين . وكان المارشال يبدى فى الواقع ترددا فى الثقة بالوطنيين الاشتراكيين ويخشى وجودهم فى الحكم وقد ظهر ذلك واضحا فى موافقته على حل البرلمان أكثر من مرة خلال أشهر قلائل ، وفى تفويضه للهر فون بابن ثم من بعده للجنرال فون شليخر ، أن يتذرع بالسلطة المطلقة وأن يحكم بمقتضى قوانين الطوارىء ، وذلك لأن أحداً منهما لم يتمتع بثقة الريخستاج ، ومع ذلك فانه لم يمض على انتخاب البرلمان الجديد شهران حتى كانت حكومة فون شليخر فى دور النزع وحتى كان الرئيس الشيخ يفاوض هتلر فى تولى الحكم . وقد كان لهذا التطور الفجائى فى موقف المارشال ومستشاريه مثار دهشة عامة ، خصوصاً اذا ذكرنا ان الحزب الوطنى الاشتراكى لم يكن يومئذ فى ذروة قوته ، ولم تكن له فى البرلمان سوى أقلية ، وكانت قد نضبت موارده وخبت قواه . ومن الغريب أن يكون رجل هذا التطور ومدبره فون بابن الذى لم يدخر أثناء حكومته وسعا فى حرب هتلر وحزبه

وقد فسر هذا التطور يومئذ بان استدعاء هتلر الى الحكم لم يكن الا وسيلة لتحطيم نفوذه وتمزيق حزبه ، وان هذا الاضطلاع باعباء الحكم ومسئولياته سيصهره ويكشف عن ضعفه ، وانه من جهة أخرى لن يتمتع بالسلطة كاملة ، وستتخذ الضمانات الكفيلة بكبح جماحه ومنعه من اطلاق العنان لمشاريعه المتطرفة التي كانت تعتبر يومئذ خطرة على مستقبل المانيا ومصالحها ومركزها الدولي . وعلى أي حال فقد وقع الانقلاب الحاسم أخيراً ، وعهد المارشال هندنبورج الى الهر أدولف هتلر بتولي رياسة الحكم في ٣٠ يناير سنه ١٩٣٣ ودخل الوزارة معه من أقطاب حزبه الكبتن جيرنج وزيراً للداخلية . ولكن اعطيت وكالة الرياسة ورآسة وزارة بروسيا للهرفون بابن ، ووزارة المالية لزعيم الحزب الوطني الهر هوجنبرج ، ووزارة الخارجية للبارون فون نيرات ووزارة الدفاع لقائد مسؤل سيسرة لدى الرئيس هندنبورج ، وبذا أعطيت السلطات الهامة لرجال يثق المارشال بفطنتهم واتزانهم وحسن تقديرهم

على ان هذه الضمانات التي اريد ان يحاط بها حكم الوطنيين الاشتراكيين كانت نظرية ، وكان هرهتلر بالعكس يعتقد ان هذه الخطوة انما هي تحقيق للشطر الاول من برنامجه ، وهو الاستيلاء على السلطة ؛ ويجب ان يكون هذا الاستيلاء عمليا كاملا . وسرعان ماتدفق تيار الوطنية الاشتراكية منذ المساء الذي تقلد فيه الزعيم Fuerher «اي هتلر» رآسة الحكم ، وهرعت فرق الهجوم ذوي الاردية السمراء آلافا مؤلفة تحيي الزعيم في مكتب الرآسة وتهتف له حتى منتصف الليل . ومنذ تلك الليلة ظهر الحزب الاشتراكي في ذروة قوته ، وشعر زعماء المانيا السابقين وشعر الشعب الالماني كله بان عهدا جديدا سيفتتح . ثم توالت الحوادث بسرعة فوقع حريق الريخستاج في ٢٧ فبراير ؛ وكان الريخستاج قد حل مرة أخرى لان هتلر لم يثق بمجلس ليست له فيه اغلبية قوية ، ولم يرد ان يبقى تحت رحمة حلفائه اعضاء الحزب الوطني وحزب الوسط الكاثوليكي ؛ وتحدد للانتخابات الجديدة يوم ٥ مارس فوقع حريق الريخستاج قبله بأيام قلائل ، ونسبت الحكومة الجريمة الى الشيوعيين واتخذتها ذريعة لسحق كتلة اليسار اعني الديموقراطيين والشيوعيين فقبضت على زعمائهم وصادرت مراكزهم واموالهم وطاردتهم بمنتهى العنف والشدة ؛ وصرح الهر هتلر وزملاؤه يومئذ بان لديهم الادلة الحاسمة على ان الجريمة انما هي بدء فقط لثورة دموية مخربة واسعة النطاق يدبرها الشيوعيون لقلب الحكومة . ولكن حريق الريخستاج لبث مع ذلك حادثاً غامضا مريبا ولم يقتنع الرأي الخارجي بهذه التأكيدات ؛ ووجهت بشأنه شكوك وتهم خطيرة الى الحزب الوطني الاشتراكي ذاته (١) وعلى أي حال فقد ساعد هذا الحادث على ظفر الهتلريين في الانتخابات فخرجوا بأغلبية قوية وفاز الديموقراطيون مع ذلك بنحو مائة وثلاثين كرسي والشيوعيون بنحو ثمانين ، وعقد الريخستاج الجديد في ٢٣ مارس ؛ ولم يشهده النواب الديموقراطيون والشيوعيون لانهم كانوا جميعا في السجن او في المنفى ، وفي هذه الجلسة حصل الهر هتلر على تفويض بالحكم المطلق والتشريع لمدة اربعة أعوام ، ولم يبق له حاجة بعد ذلك الى موافقة الرئيس هندنبورج أو توقيعه ، وتحققت بذلك الدكتاتورية المطلقة التي ينشدها الحزب الوطني الاشتراكي ، ولم يمض سوى قليل حتى انتزع هتلر الزمام التي كانت بيد حلفائه وشغلها بأصدقائه ومعاونيه ، وتوارى جميع الزعماء والقادة الآخرين من الميدان ؛ واضحى هتلر سيد المانيا المطلق ومن ورائه حزب زاخر قوامه اليوم خمسة ملايين .

يتبع

محمد عبد الله عنان

(١) صدر الحكم اخيرا (٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٣) في قضية حريق الريخستاج التي كانت تنظر منذ اشهر امام محكمة ليبزج العليا بتهمة الزعيم الشيوعي تيمجلر وباقي الشيوعيين المتهمين ولم يحكم فيها الا على شيوعي هولندي مخبول هو فان درلوبه وبذلك لم يثبت ان الجريمة كانت من تدبير الحزب الشيوعي الالماني